محاضرة 01:

تعريفات. أهمية القرآن وعلومه في الدراسات اللغوية والأدبية

تمهيد:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم، وركّب خلقه من جسد وروح، وجعل للجسد غذاءَه وللروح غذاءها. أما الجسد فجسم مادي يتغذى بالماديات، وهي طعامه وشرابه. أما الروح فقد أعانها الله تعالى على تحصيل غذائها وأدناه إليها، و أرسل الرسل تهدي إليه. ووهب العقول تؤمن به. فإذا انحرفت أمة من الأمم عن سمت الصراط المستقيم أرسل الله إليهم رسولا منهم يعيدهم إليه، ويظهر اللهُ على يديه من المعجزات ما يُظهر بها صدقه، وتقوم بها حجّته.

وقد كانت سُنَّة الله تعالى في المعجزات أن تكون المعجزة التي يُظهرها الله على يد كل نبي من أنبيائه من جنس ما برع فيه قومه و تفوّقوا. حتّى تكون أقوى حجة، و أصدق دليلا. فمعجزة موسى عليه السلام من جنس ما برع فيه قومه الذين نالوا في السحر درجة وحظا بعيدًا، فكان أول من أدرك إعجاز موسى عليه السلام هم السحرة أنفسهم. وكذلك عيسى عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب الذي برع فيه قومه. أما صالح عيه السلام فقد أرسله الله تعالى إلى قوم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا، و لا تزال آثارهم باقية بزخارفها و نقوشها فجاءت معجزة صالح عليه السلام بأن أخرج لهم بإذن الله من الصخر ناقة ذات روح تأكل وتشرب وتدر الحليب. أما العرب وهم أهل البلاغة والفصاحة و البيان، فحين أراد الله سبحانه و تعالى بهم خيرًا، واقتضت حكمته أن يبعث إليهم رسولا يخرجهم من الظلمات إلى النور جاءت معجزته صلى الله عليه وسلّم قرآنا يقرأ ويُسمع، ويمسك البلاغة من أطرافها، ويملك الإعجاز من مجامعه.

<u>1- تعريف القرآن الكريم:</u>

أ- لغة:

ذهب العلماء في لفظ " القرآن " مذاهب، فهو عند بعضهم مَهموز وعند بعضهم غير مهموز، فقد رأى الأشعري ومن يتبعه إلى أنّه مشتق من قَرَن الشيء بالشيء إذا ضمه إليه، لأن السُّوَر و الآيات تُقرَن فيه و يُضمُّ بعضها إلى بعض، وذهب الزّجاج و آخرون إلى أنّ لفظ " القرآن" مهموز على وزن فُعلان، مشتق من " القَرْء" بمعنى الجمع. ومنه قرأ الماء في الحوض إذا جمعه، لأنه جَمع ثمرات الكتب السابقة.

ويقول اللّحياني، إنّه مصدرٌ مهموز بوزن الغُفران، مشتق من قرأ بمعنى تلا، سُمّي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر. والرأي الأخير أقوى الآراء و أرجحها، فالقرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إنَّ علينا جَمعَه وقرآنَه، فإذا قرأناه فاتّبعْ قرآنه﴾ القيامة: 17- 18.

ب -اصطلاحا:

أما ما ذكره العلماء من تعريف " القرآن " اصطلاحا: " فهو الكلام المُعجزُ، المنزَّلُ على النبي صلى الله عليه وسلّم، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبّد بتلاوته" وأوجزه بعضهم بقوله: " القرآن هو كلام الله تعالى، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلّم، المُتعبّد بتلاوته".

" فالكلام " جنس شامل لكل كلام، وإضافته إلى الله تعالى تميّزه من كلام من سواه، سواء أكان من الإنس أو غيرهم.

و " المنزّل" مُخرج للكلام الإلهي الذي استأثر به في نفسه، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر، إذ ليس كل كلامه تعالى مُنزّلا.

وتقييد المنزل بكونه على محمد صلى الله عليه وسلّم لإخراج ما أُنزل على الأنبياء من قبله، كالتوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزّل على عيسى، والزبور المنزّل على داوود، والصحف المنزلة على إبراهيم عليهم السلام.

و " المتعبّد بتلاوته " أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة لإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك، كالأحاديث القدسية.

ومن أسماء القرآن الكريم نذكر:

1-الكتاب. في قوله تعالى:﴿ ألم، ذلك الكتاب لا ريبَ فيهِ هدى للمتّقين ﴾البقرة: الآية1- 2.

2- الذِكر. في قوله تعالى: ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذّكرَ و إنّا له لحافِظون ﴾ الحجر: الآية 09

3- الفرقان. في قوله تعالى: ﴿ تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ﴾ الفرقان: الآية 01

<u>2-الفرق بين المصحف و القرآن الكريم:</u>

المصحف ليس اسمًا للقرآن ذاته، و إنما هو اسم للصحف التي كُتب عليها القرآن، ولم يُطلق عليه " المصحف " إلاّ بعد جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في صحف ضُمَّ بعضها إلى بعض فسُمّيت مصحفا. ولهذا نرى العلماء يتحدثون عن حكم بيع المصحف، ولم يقل أحد منهم: بيع القرآن

3- الفرق بين القرآن الكريم و الأحاديث القدسية:

إلى جانب أن التّعبّد بالتلاوة مرتبط بالقرآن الكريم دون الحديث القدسي، هناك فروق أخرى نذكر منها:

1- أنّ القرآن الكريم من عند الله لفظا ومعنى، أما الحديث القدسي فمعناه من الله باتّفاق العلماء، أما لفظه فاختُلِف فيه.

2- أنّ القرآن الكريم لا يُنسَبُ إلاّ إلى الله تعالى، أمّا الحديث القدسي فينسبُ إلى الله تعالى نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى، ويُروى مضافًا إلى الرسول "ص " نسبة إخبار فيقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم فيما يرويه عن ربّه.

3-أنّ القرآن الكريم لا يمسّه إلاّ المطهرون، أمّا الحديث القدسي فيمسّه الطاهر وغيره.

4-أنّ القرآن الكريم تحرم روايته بالمعنى، أما الحديث القدسي فلا تحرم روايته بالمعنى.

4-خصائص القرآن الكريم:

1-من خصائص القرآن الكريم التّعبّد بتلاوته، وتعدّد أسمائه و صفاته.

2-ومن خصائص أسلوبه ولغته أنه لا يعلو عن أفهام العامة، و لا يقصُر عن مطالب الخاصة، وكذلك تصويره للمعاني بصورة المحسوس حتى تلج (تدخل، تصل) إلى الذهن مترابطة متكاملة، من دون مشقة و لا تكلف.

3-تميّز أسلوب القرآن أيضا بنظمه ووقعه، وجودة السبك، وإحكام السرد، واتّحاد المعنى، وإيجاز اللفظ مع وفاء المعنى.

4-ومن خصائص القرآن أيضا أنه شفاء من الأمراض النفسية، كما أنه يشفع لأهله يوم القيامة.

5-علوم القرآن:

5-1- تعريف علوم القرآن: وهو لفظ مركب إضافي وله جزءان: مضاف وهو " علوم" ومضاف إليه وهو " القرآن ". ويراد بكلمة علوم ـ وهو المضاف ــ كل علم يخدم القرآن الكريم، ويتصل به، ويستند إليه، وينتظم في ذلك: علم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم إعجاز القرآن، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم القراءات، وعلم عدّ الآي وفواصلها، وعلم الرسم العثماني، وعلم الدين من فقه وتوحيد، وغيرهما، وعلم العربية من نحو وبلاغة وسواهما، ويراد بكلمة " القرآن" - وهو المضاف إليه -الكتاب المقدّس المنزّل على سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم.

ويمكن تعريف علوم القرآن أيضا بأنها المباحث المتعلقة بالقرآن من ناحية مبدأ نزوله وكيفية هذا النزول، ومكانه ومدّته، ومن ناحية جمعه وكتابته في العصر النبوي وعهدي أبي بكر وعمر، ومن ناحية إعجازه، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه وأقسامه وأمثاله، ومن ناحية ترتيب سوره وآياته، وترتيله و آدائه، إلى غير ذلك من النواحي. وموضوع هذا العلم هو " القرآن الكريم ".

2-5- نشأة علوم القرآن:

حين أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه بأن يصدع بما يؤمر، وأن يعلن الدعوة إلى الإسلام، امتثل الرسول "ص" إلى الأمر، فدعا الناس إلى الإسلام، و أقبل من أسلم منهم على القرآن الكريم يتلونه حق التلاوة، ويجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم لحفظه وتدبّر آياته، وكانوا عربًا خلّصا يفهمون القرآن بمقتضى السليقة العربية، فإن أشكل عليهم معنى سأل بعضهم بعضا، فقد يكون أحدهم أعلم من الآخر، فإن أشكل عليهم سألوا الرسول "ص" وبهذا ندرك أن علوم القرآن نشأت منذ وقت مبكر في الإسلام، بل منذ أشرقت شمس الإسلام، ذلكم أن حفظ القرآن وتلاوته، وتدبره وتفسيره من أهم علوم القرآن الكريم، وإذا نظرنا إلى حال الصحابة رضوان الله عليهم وجدناهم يتعلمون علوم القرآن مشافهة، ذلكم أن القوم كانوا ذوي ذكاء في القريحة، وتذوق للبيان، وتقدير للأساليب. ويدركون إعجاز القرآن الكريم بمجرد سماعه، فحفظوا علوم القرآن كما يحفظون الآيات. فيقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو على المنبر: " سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا و أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل ".

واشتهر كثير من الصحابة بتفسير القرآن، منهم الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن الزبير، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وعائشة رضي الله عنهم. وحين اتّسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة رضي الله عليهم في البلدان المفتوحة، يعلمون أهلها القرآن، ويفسرون لهم معانيه فنشأت ما يصح أن نطلق عليها بالمعنى الحديث " مدارس التفسير". وهي كثيرة، و أشهرها ثلاث مدارس:

1-مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما في مكة.

2-مدرسة أبي بن كعب رضي الله عنه بالمدينة.

3-مدرسة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الكوفة.

ولم يكن تفسير هؤلاء وغيرهم من الصحابة والتابعين مقتصرًا على علم التفسير بمعناه الخاص، بل كان يشمل مع هذا علم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ

والمنسوخ، وعلم المكي والمدني، ونحو ذلك. كما لم يكن شاملا للقرآن الكريم، ولا مدَوَّنا، وإنما كان بالرواية والتلقين.

ومع عهد التدوين دوّنت بعض علوم القرآن على أنها باب من أبواب الحديث: وممّن دوّنه في هذه المرحلة:

يزيد بن هارون السُلّمي (ت 117ه)، وشعبة بن الحجاج (ت160ه)، و وكيع بن الجراح (ت197ه)، وسفيان بن عيينة (ت198ه). ولم يكن جمعهم للتفسير جمعا على استقلال وانفراد، فجميع ما نقلوه كان بالإسناد، ثم دُوِّن التفسير مستقلاً و أصبح علما قائما بنفسه، و أشهر من دوّنه على هذا النحو يحيى بن سلاّم البصري(ت200ه)، وابن ماجه(ت273ه)، وابن جرير الطبري (ت310ه)، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري (ت318ه)، وغيرهم.

و التفسير هو أحد علوم القرآن الكريم، بل هو نواة علوم القرآن، وبهذا يكون التفسير أول علم من علوم القرآن بدأت الكتابة فيه. وقد ألّف العلماء في العلوم الأخرى كتبا مستقلّة. فألّف الحسن البصري (ت110ه) في " القراءة"، وألّف أبو عبيد القاسم بن سلاّم (ت 224ه) في " الناسخ و المنسوخ"، وعلي بن المديني (ت234ه) في أسباب النزول، وألّف أبو إسحاق الزّجاج (ت311ه) " إعراب القرآن"، وألّف الباقلاني (ت403ه) إعجاز القرآن، وألّف أبو الحسن الواحدي (ت468ه) كتاب " أسباب النزول" وغيرها كثير من المؤلفات التي تناولت علوم القرآن في القرون السابقة.

<u>5-3- أهمية علوم القرآن:</u>

1-علوم القرآن الكريم تساعد على فهم القرآن، واستنباط الأحكام و الآداب منه، ويعرف الدارس لها مبدأ نزوله، وكيفية هذا النزول ومدّته، ويقف على نواحي إعجازه، وعلى ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وعلى ترتيب سوره إلى غير ذلك.

2-إن الدارس لهذا العلم يتسلّح بسلاح قوي يمكّنه من دحض وتفنيد مزاعم أعداء القرآن.

3-إن الدارس لهذا العلم يكون ذا حظ كبير وقسط وفير من الثقافة القرآنية، وما اشتمل عليه القرآن من علوم ومعارف ممّا يكون له أحسن الأثر في إصلاح النفس، وتربية الضمير، وتهذيب الخلق.

<u>5-4- أهمية القرآن وعلومه في الدراسات اللغوية و الأدبية:</u>

نشأت الدراسات العربية بفروعها المختلفة، متعلقة بالقرآن الكريم، فكان القرآن هو المحور الذي دارت حوله تلك الدراسات المختلفة، سواء منها تلك الدراسات التي تتعلق تعلّقا مباشرا بتفسير القرآن، وتوضيح آياته، وتبيين معناه واستنباط أحكام الشريعة منه، أو تلك التي تخدم

هذه الأغراض جميعها، بالبحث في دلالة اللفظ، واشتقاق الصيغ وتركيب الجمل، و الأسلوب و الصور الكلامية، واختلافها باختلاف المقام، فقد اتصل الدين باللغة، اتصالا وثيقا في العصور الإسلامية كلها، وكان الباعث على اهتمام علماء اللغة، بجمع الشواهد اللغوية، وتقعيد اللغة باعثا دينيا، هو ضبط نصوص القرآن الكريم، وتعليم الطلاب لغة القرآن.

ولاشك أن الحفاظ على كتاب الله ودينه كان السبب القوي لنشأة الدراسات اللغوية عند العرب، بعد أن نشأ الاختلاط بين العرب و العجم إثر الفتوحات الإسلامية، وخيف على الإسلام و كتابه من أثر ذلك . وقد برزت نتيجة لذلك فروع الدراسات اللغوية و الأدبية و التي يعدّ أهم مجالاتها مايلي:

1-المعاجم العربية: حيث ذهبت طائفة من العلماء إلى البادية لأخذ اللغة من الأعراب الفصحاء، وتدوينها صافية لم تشبها شوائب العجمة التي بدأت في الدخول إليها من الأقطار المفتوحة. ومن العلماء الأجلاّء الذين أبلوا بلاءً حسنا في ذلك " الخليل بن أحمد الفراهيدي، و الأصمعي، ويونس بن حبيب الظبّي، و أبو زيد الأنصاري وغيرهم. في الوقت الذي أخذ الناس في الصدر الأول للإسلام يسألون كبار الصحابة عن تفسير بعض آيات القرآن الكريم و غريب ألفاظه.

2-الشعر العربي: شعر العلماء منذ الصدر الأول للإسلام، بحاجتهم إلى الشعر العربي، للاستعانة به في فتح مغاليق الألفاظ، والأساليب الغريبة الموجودة في القرآن الكريم، و الأحاديث النبوية الشريفة، فأكبوا عليه يروونه، ويحفظونه و يدرسون أساليبه ومعانيه. وما يدور فيه من ذِكرٍ لأيام العرب ووقائعهم، ولولا هذا الباعث الديني، لاندثر الشعر الجاهلي، ولم يصل إلينا منه شيء. يقول ابن عباس: " الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه". ويقول أيضا: " إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر، فإنّ الشعر ديوان العرب ". فكانت دراسة القرآن الكريم من دواعي الاهتمام بالشعر.

3-النحو العربي: فإذا نظرنا إلى النحو العربي، فإننا نجد أن الغيرة على القرآن الكريم، وصونه من التحريف على ألسنة الأعاجم كانت السبب في وضع قواعده، وتروي لنا الأخبار أنّ أبا الأسود الدّؤلي كان أول من وضع النحو، وأنّ السبب في ذلك أنه سمع قارئا يقرأ: "أن اللهَ بريءٌ من المشركينَ ورسولُهُ "، بكسر اللام من: "رسوله" فغضب لذلك، وكان هذا حافزا له على وضع مبادئ النحو.

ولم يكن اللحن في عصر الرسول عليه السلام، وعصر الخلفاء الراشدين ظاهرة عامة، تتسرّب إلى كل طبقة وتمتد إلى ألسنة العوام والخواص، بل كان محصورا في فئة الموالي والعبيد الذين دخلوا الإسلام، أما في العصر الأموي حيث امتدت رقعة الدولة الإسلامية من

المحيط إلى الخليج فقد انتظم في سلك الإسلام كثير من الأجناس الذين كانوا يتحدثون لكنات مختلفة، ومثل ذلك يقال في الدولة العباسية حيث قويت شوكة الموالي، فاهتم العلماء بالنحو العربي وقواعده حماية للقرآن الكريم من اللحن والخطأ.

4-البلاغة: أثار القرآن الكريم منذ اللحظات الأولى لنزوله حركة فكرية عند متلقيه، مما جعلهم يلتفون إلى ما جاء به في أساليب التعبير والبيان، ويُنَقِّبون عن كنوزها، ويوازنون بين صنوف الكلام المختلفة. فكان القرآن الكريم هو العامل الرئيس الذي ساعد على الشروع في الدراسات البلاغية بمختلف اتجاهاتها وكان هذا العامل أهم البواعث في إثارة الهمم للبحث الجاد عن ترتيب وجوه الكلام والتمييز بين الأساليب. فكان الدافع للاهتمام ببيان القرآن في أول الأمر هو الدفاع عن الكتاب العزيز أمام نزعات الشك ورد المطاعن، ثم شرعت دراسات جادة في بناء منظومة واسعة غرضها شرح أَوجُه إعجاز القرآن ودراسة أسلوبه. وهذه الدراسات زودت مسيرة علم البلاغة بفيض من الفصول والأمثلة التي اعتمدتها مصنفات علوم البلاغة. وتذكر المصادر العربية أنّ أبا عبيدة معمر بن المثنّى كان من أوائل من ألّف فيها.

5-الرسم الإملائي: (الكتابة): والرسم الإملائي لا شك قديم وسابق للوقت الذي أنزل فيه القرآن، غير أنّ العناية بالقرآن الكريم وصيانته من اللّحن هي التي دعت العلماء في الصدر الأول، إلى البحث عن طريقة تعصم من يتلو القرآن الكريم من الوقوع في اللحن. حين القراءة من المصحف، بسبب خلوّه من رموز الحركات. وتنسب الروايات الإسلامية إلى أبي الأسود الدّؤلي أنه كان أول من فكر في وضع رموز للحركات يضبط بها الرسم القرآني. ثم جاء الخليل بن أحمد فوضع الشكل الذي يكتب به حتى الآن.

وبهذا يتضح أن القرآن الكريم كان محورا لجميع الدراسات العربية التي قامت في الأساس لخدمته.